

حياته شعره

✍ ... ليس للشعراء من حياة تبقى خارج شعرهم، فهو الذي يجعل لوقائع وجودهم أهمية فكرية وتاريخية توثيقية. والأحداث الكبرى عندهم هي القصائد، فغالبا ما تخلو الحياة الخارجية للمبدعين من معالم لافتة لو عزلت عن إنتاجهم، وكثيرا ما تكتسب الحوادث الصغيرة في مسيرتهم اليومية أبعادا خطيرة بحجم ما أسفرت عنه من منجزات إبداعية.

والحدث الأول في حياة أحمد شوقي هو مولده في البيئة التي نشأ فيها وتقلب بين أحضانها، لأسرة تجري في عروقتها دماء متعددة الأجناس؛ عربية وتركية وجركسية ويونانية. فقد كان

جده لأبيه - واسمه أيضا أحمد شوقي - كَرديا هاجر إلى مصر أيام محمد علي، وولاه سعيد باشا أمانة الجمارك المصرية. أما جدته لأبيه "نمزار" فقد استحقت ذكرا خاصا في تشكيل أرومته ؛ لأنها من أصل يوناني كانت تعمل وصيفة في قصر الخديوي، ولأنها هي التي كفلته في صباه ، ولكن أبويه ولدا بمصر وتربيا حتى أنجباه.

وقد شاع أنه ولد عام ١٨٦٨ نتيجة لما ورد في طبعة الشوقيات القديمة من أنه - على حد عبارته - كان يجبو إلى الثلاثين من عمره عند نشرها، والمعروف أنها نشرت عام ١٨٩٨ ميلادية. ولكن شواهد أخرى أثبتت غير ذلك ، فقد تبين أن عام النشر المؤرخ في شعر الشوقيات بالتقويم الهجري يقابل عام ١٩٠٠ ميلادية، كما أن ابنه حسين شوقي ذكر أن أباه حين توفي عام ١٩٣٢ كان في الثانية والستين من عمره ، وحسم الموقف نشر وثيقة تؤكد أن ميلاده كان ١٨٧٠، كما هو مثبت في شهادة اليسانس التي حصل عليها من باريس في الحقوق.

وقد تربى في حى الحنفى بالقاهرة بعد أن بدد أبوه ما تبقى من ثروته الموروثة. ولولا كرم جدته التى تكفلت بنفقات تعليمه في المدارس لما تجاوز الكتاب الذي حفظ فيه القرآن على يد الشيخ صالح. وقد ضمن له تفوقه الدراسي مجانية تعليمه في مدرسة

الحقوق ، كما أن علاقته بجدهته هي التي ربطته بسدة العرش ، فقد كانت تحمله للقصر منذ طفولته ، ومنها تلك المرة الشهيرة التي رآه فيها الخديوي فلاحظ حولا في عينيه فسألها عن علته ، فقالت : إنه يا مولاي لا يزال هكذا ناظرا أبدا إلى السماء ، فأخرج من جيبه صرة من ذهب ونثرها على الأرض ، فخطف بريقها نظر الطفل وخفض عينيه . ضحك الخديوي قائلا للوصيفة : "كلما رفع عينيه انثري له ذهبا حتى يتعود النظر إلى أسفل" ، فعلمت الجدة الذكية قائلة : "هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي" ، فقال : "جيئي به إلي متى شئت . إني آخر من ينثر الذهب في مصر" .

وقد أتم تعليمه الثانوي عام ١٨٨٥ ، ثم التحق بقسم الترجمة في مدرسة الحقوق وتخرج منها بعد عامين ، فعينه الخديوي توفيق بالقصر ، ثم أرسله في بعثة إلى فرنسا ليواصل دراسة الحقوق والترجمة ، ف قضى عامين في مدينة مونبلييه قبل أن ينتقل إلى باريس ويظل بها عامين آخرين حتى عاد عام ١٨٩٣ . ولأن حياة شوقي ستحكمها بعد ذلك مجموعة من الرحلات التي تمثل أبرز معالمها وأشدها تأثيرا في شعره ، فإن تلك الرحلة العلمية الأولى ستكون حاسمة في تحديد منطلقاته الفنية والفكرية والثقافية ، ويكفي أن نبرز منها عددا من الحوادث التي تعد مؤشرات دالة على مسيرته الفنية :

- اشترك مع زميل له في البعثة يسمى "على أبو الفتوح" - مات شابا بعد أن وصل مبكرا إلى أن يصبح وكيلا لوزارة المعارف - في تشكيل "جمعية التقدم المصري" في فرنسا من الطلاب والدارسين لممارسة العمل الوطني، وربطته صداقة حميمة بالزعيم مصطفى كامل، وتفتحت مداركه على ضرورة تبني مشروعات النهضة الوطنية.

- لقيه صديقه الأمير شكيب أرسلان في شوارع العاصمة الفرنسية وهو يتأبط ديوان المتنبي؛ فقد كان جسده في فرنسا وقلبه معلق بنبي كما كان يسميه. وهو ما يجعل تأثيره بالثقافة الفرنسية محدودا ومقتصرا على المشهور من أعلامها، دون أن يتعمق في قراءة الشعراء الرمزيين والحداثيين أمثال رامبو وبودلير وفرلين كما يقول طه حسين، ويكتفى بـ: لامارتين وبحيرته وهو جو وغيره ممن يعرفهم أوساط الناس.

- أصيب في فرنسا بمرض الكوليرا الذي أشرف به على الموت وترك أثرا عصبيا واضحا في تكوينه ووسوسته وخوفه من الموت وتأمله في الأقدار، وأثرا وجدانيا باقيا في تعلقه بالحياة. وقد ذهب للاستشفاء في الجزائر، فاطلع على ظروف شعب عربي مقهور تحت وطأة الاستعمار الاستيطاني الرهيب.

- التمس العودة لمصر بعد إنهاء دراسته، فصدر إليه أمر الخديوي بالبقاء لمدة ستة شهور أخرى لدراسة الأدب؛ وهو ما يجعله يتذكر دائما هامش حريته المحدود وطبيعة مصيره المعلق بكلمة من ولي النعم.

- حاول شيئا من التجديد في شعر المدائح بمقطوعته الغزلية "خدعوها بقولهم حسناء" وعندما بعث بها إلى الشيخ عبد الكريم سلمان محرر الوقائع المصرية صدرت الأوامر بنشرها دون المقدمة الغزلية اللعوب، وكانت أجمل أبيات المدح، وانتهى الأمر بعدم نشرها كلية. واستخلص شوقي - كما قال في مقدمة الشوقيات القديمة - درسه الأول في الحرص على السلطة، وأن التجديد "مثل الأفعوان، لا يؤخذ إلا بأطراف البنان".

لكننا لن نستطيع في هذه العجالة الوجيزة أن نتبع جميع رحلات شوقي ومؤشراتها الدالة في حياته وشعره، ونكتفى بأن نبرز منها أمرين: أولهما: مجموعة أسفاره ورحلاته شبه السنوية إلى تركيا ومدنها بما فيها مقر الخلافة التي كان يدين لها بالولاء نظرا إلى عدد من العوامل المركبة في طبيعة انتهائه العرقي من ناحية، وحماسه الديني من ناحية ثانية، وموقفه السياسي المناصر للعثمانيين

من ناحية ثالثة. وبالرغم من الحرج الذي وقع فيه عند إشاداته بالبطولات الحربية التركية واضطراره لنقد هؤلاء الزعماء الأبطال أنفسهم عند إسقاطهم للخلافة، فإن الرحلة الأولى من شعر شوقي تزخر بالنصوص التي تتغنى بالطبيعة التركية وتدور في فلك السياسة العثمانية، بل تتغنى بنموذج الجمال في المرأة التركية، ولا شك أن هذه الأسفار المتواصلة كانت تشد حباله لهذا الأفق.

الأمر الثاني يمثل تحولا جذريا في توجهات شوقي، فبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى قامت سلطات الاحتلال الإنجليزي بخلع الخديوي عباس حلمي وعينت السلطان حسين كامل خلفا له، وشنت حملة اضطهاد لأنصار الخديوي المخلوع فصدرت الأوامر إلى شوقي بمغادرة مصر عام ١٩١٥، فاختار مدينة برشلونة الإسبانية منفى له، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد انتهاء الحرب عام ١٩١٩. وكان لهذه الرحلة القاسية أثرها البالغ في شوقي إذ تأكد له أن الارتباط بالسلطة الحاكمة مدمر للفنان، وأن علاقته الحقيقية يجب أن تكون بالشعب، فتحول من شاعر الأمير المحبوس في قفصه الذهبي إلى شاعر الشعب الذي يتغنى بآماله وأحلامه. كما تبين له أن البعد العروبي هو الأبقى من العلائق الدينية بالدولة العثمانية، وكان لمعايته الخلاقة للآثار العربية في

الأندلس أثر قوي في تنمية حسه القومي بما يمكن أن يعتبر اكتشافاً للعروبة بأبعادها التاريخية المتعددة، وتعزز ذلك بتقوية نزعته الوطنية في عشق مصر والتغني بأمجادها والتعبير الصادق عن طموحاتها في الحرية والنهضة.

وشهدت السنوات التي قضاها بالوطن عقب العودة ذروة نضجه الفني والإبداعي إذ أصبح المعبر عن الضمير الوطني والقومي، حتى اجتمعت نخبة من المفكرين عام ١٩٢٦ وألفت "اللجنة العامة لتكريم شوقي" وضمت أسماء طه حسين وأحمد أمين ومحجوب ثابت والآنسة مى زيادة وأنطون الجميل، وقررت إقامة احتفال عربي كبير في أبريل عام ١٩٢٧ لتكريم الشاعر العظيم.

وقبل الزعيم سعد زغلول رئاسة شرف الاحتفال، وحضرته وفود من أبرز الأقطار العربية، وألقى أحمد شفيق - رئيس اللجنة التنفيذية - كلمة الافتتاح قائلاً: "السلام عليكم يا أمة العرب ... ها أنتم أولاء قد اجتمعتم من مختلف الأقطار لتكرموا شوقي، وبعبارة أصح لتكرموا العبقرية في شخص رجل منكم يعود إلى لغتكم بكل ما أحرز من فضل. ليست الأمم أيها السادة بكثرة عددها، إنما الأمم بمن تخرج من رجال عظام، فأولئك ثروتها

وعزها وذكرها الخالد على مر التاريخ.. وهذا شوقي عظيم من يوم ظهر، عبقرى من يوم نجم، ولكم دوى صوته المرن بأعلى الشعر، ولكم جدد في لغة العرب وفسيح مجالها من بيان وأدب، ولكم رقى بها مرقى كريما بين لغات العالم".

وانبرى حافظ يتوج شوقي بإمارة الشعر قائلاً:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً

وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

فغن ربوع النيل واعطف بنظرة

على ساكن النهرين واصدح وأبدع

وأنشدت قصيدة مطران التي يقول فيها لشوقي:

أنت الأمير ومن يكنه بالحجى

فله به تيه على الأمراء

اليوم عيدك وهو عيد شامل

للضاد في متباين الأرجاء

وعندما أقعده مرض تصلب الشرايين في أخريات سنواته عكف على استئناف مشروعه الإبداعى الرائد في كتابة عدد من المسرحيات الشعرية التي أسست لهذا الفن في اللغة العربية، وذلك قبل وفاته عام ١٩٣٢.

نقاد شوقي

✍ ... كان شعر شوقي مادة خصبة أغرت أجيال النقاد العرب بمقاربتها من مختلف الرؤى والمنظورات: ابتداء من المراجعات اللغوية المبكرة التي كانت تنشر عقب إذاعة قصائده لتحرير كلماته ونقد قوافيه، إلى تيار النقد الرومانسي العنيف وتيارات النقد الاجتماعي وحتى أصحاب الاتجاهات الحديثة في النقد البنيوي والأسلوبي. ولعل أقوى هذه الأصوات التي أسمعت شوقي ما لا يجب من النقد كان صوت العقاد الجبار الذي ارتفع في مستهل تشكيله لما أطلق عليه فيما بعد مدرسة الديوان كي يجابه الشاعر المدلل بمقولاته الرومانسية الحادة عن طبيعة الشعر ووظائف الخيال فيه بطريقة ثورية، فقد اتهم شوقي بمجموعة من النقائص في شعره، من أهمها التفكك والإحالة

والتقليد والولوع بالأعراض دون الجواهر ، أما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعاً مبدداً من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية ، فالقصيدة عند العقاد ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة القصيدة؛ فهي كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته.

واختار العقاد لبيان افتقاد شعر شوقي لهذه الخاصية مرثيته في مصطفى كامل: "المشرقان عليك ينتحبان" ليثبت فقدانها للوحدة الفنية؛ ثم يعمد العقاد بعد ذلك إلى تعداد علاقات أبيات شوقي بغيرها من أبيات الشعر القديم ليثبت عليه تهمة التقليد والمحاكاة، ثم يتحدث عن الولع بالأعراض دون الجواهر فيرى أن بيت شوقي:

دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثوان

"معناه في نظره أن السنة أو مائة السنة التي قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق وثوان، وهذا هو جوهر البيت. فهل إذا قال قائل: اليوم أربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد أتى بالحكمة الرائعة؟".

والواقع أن العقاد ورفيقه في مدرسة الديوان كانوا ينطحون صخرة الذوق الشعري العام ويطلبون المستحيل من الشاعر الغنائى الكبير ؛ لأن تحقيق الوحدة العضوية بالشكل الذي شرحه العقاد لم يكن يتوفر في أشعاره ذاتها كما قال له من دافعوا عن شوقي. بيد أن هذا المهجوم العنيف قد أفاد شوقي في شحذ إمكاناته الإبداعية وتوجيه طاقته الخلاقة لتجديد روح الشعر العربي وصياغته .

وربما كان الممثل الثاني للاتجاه الرومانسى في نقد الشعر أشد تفهما لطبيعة الشعر العربي، إذ أخذ يتلمس التصور في عدم التّام صورة الذات عنده وفقدانها للانسجام الضروري ، ومن الطريف أنه يوجه إليه هذا النقد في المقدمة التى طلب منه شوقي أن يكتبها لديوانه، وهو الدكتور محمد حسين هيكل الذي يقول:

"إنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه، كأنك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف. فأحدهما مؤمن عامر بالإيمان، مسلم يقدر أخوة المسلمين ويجعل من دولة الخلافة قدسا تفيض عليه شؤونه وحوادثه وحى الشعر وإلهامه؛ حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ومعنى وفكرة وخيال. والآخر رجل دنيا يرى في المتاع

بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها، متسامح تسع نفسه الإنسانية وتسع معها الوجود كله، ساخر من الناس وأمانيتهم، مجدد في اللغة لفظا ومعنى. وهذا الازدواج في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر".

ولم تكن تهمة الازدواج الشخصي والفنى سوى تعبير عن هذه المثالية الرومانسية التي تنكر تعدد الأصوات وتركيب الأمزجة، وتتوهم إنسانا ذا بعد واحد متجانس الظاهر والباطن، خاليا من القلق الوجودي والتقلب الإنساني المشروع، ومن ثم فإنها تهمة لم ير شوقي بأسا من إثباتها في مقدمة ديوانه لما يكتنفها من اعتراف صريح بعبقريته وعظمته.

أما النقد الاجتماعي فيشمل معظم الدراسات التي تناولت شعر شوقي، ابتداء من طه حسين إلى شوقي ضيف وأحمد الحوفي وسعيد العريان وغيرهم من عشرات الكتاب والدارسين، وهو في مجمله يربط الشعر بالعصر ويبرز استجابته لحاجات المجتمع الفكرية والوطنية والثقافية. ولعل رأي طه حسين في التحول الذي قلب استراتيجية شوقي الشعرية بعد المنفى أن يكون نموذجا لهذا التيار إذ يقول:

"إنه قد تحول تحولا خطيرا حقا لا نكاد نعرف له نظيرا عند غيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أدبنا العربي ، وهو تحول من ناحيتين خطيرتين، فأما إحداهما فهي أن شعره التقليدي قد تحرر من التقيد بظروف السياسة. والثانية أنه فجأة استكشف نفسه، وإذا هو شاعر قد خلق ليكون مجددا، فأقبل على التجديد في السنين الأخيرة من حياته، فأدخل في اللغة العربية في الشعر العربي خاصة فنا جديدا لم يسبقه إليه أحد، وهو فن الشعر التمثيلي".

وأهم من ذلك عند طه حسين أن شوقي في كثير من قصائده الأخيرة قد أخذ يحقق النموذج الجمالي والفكري للإنسان المصري والعربي فهو "يحس ما نحس، ويشفق مما نشفق منه، يحب الدستور ويكلف به، ويتمنى في ألد لفظ وأعذبه، وفي أمتن أسلوب وأصفاه، في أشد العبارات تمثيلا لأصدق العواطف، يتمنى إصدار الدستور:

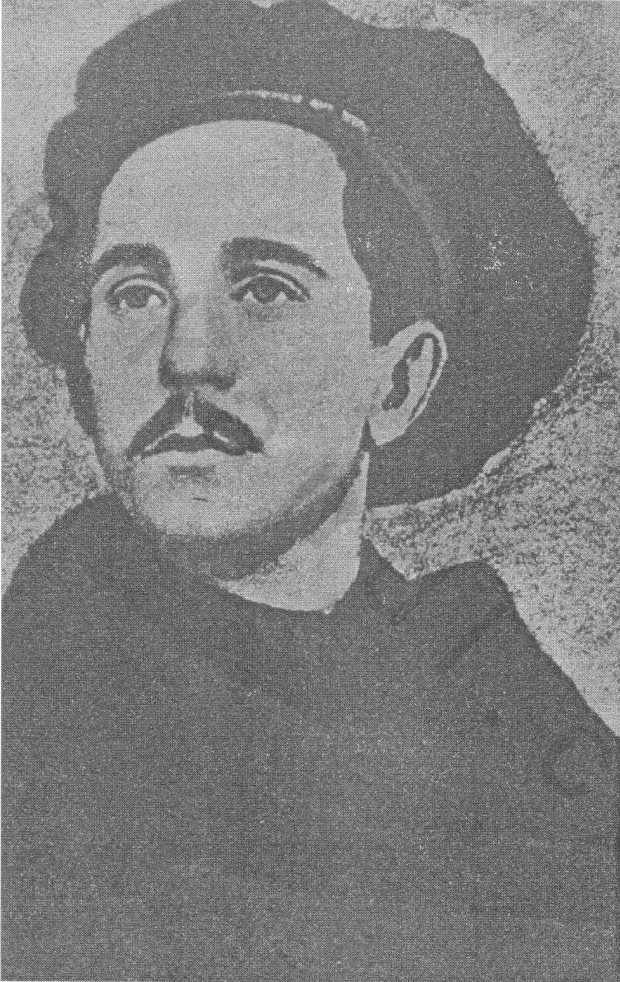
زمان الفرد يا فرعون ولي ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

ويبدو أن نجاح شوقي في التعبير عن طموح الأمة للحرية والديمقراطية هو الذي ضمن حماس طه حسين له، وهو الذي

جعله يزهو بنفسه وبدوره في صياغة الوجدان العربي العام ، وهو الذي جعل سعيد العريان يجزم في مقدمة الجزء الرابع من الشوقيات بقوله : " وما أحسب أن شاعرا في الأمة العربية منذ كانت وكان الشعر، قد ذهب صيته في الناس حيا مذهب شوقي أو بلغ مبلغه".

وربما كان النقد الأسلوبى المعاصر أكثر علمية وتوازنا في تقدير شعرية شوقى، حيث يرى الدكتور محمد عبد الهادي الطرابلسى أن أسلوب شوقى كان " يتغذى من رصيد ثقافى واسع، فخرج يمثل عصارة مصفاة من التراث العربى الفنى ومن المعارف العربية الإنسانية، إلى جانب تصويره تجربة طويلة للحياة والأحياء كانت للشاعر .. ولقد تميز أسلوب شوقى بالتوازن بين طائفتين : الإخبارية والإيحائية .. فحقق بذلك رسالة مزدوجة فكرية وفنية معا".

وركزت بعض البحوث الأسلوبية الأخرى، ومنها دراسات لصاحب هذا البحث، على اعتماد شوقى عددا من التقنيات الشعرية الفعالة لتوليد الدلالة عبر تجانس التراكيب ومفارقات الصياغة وآليات التكرار والتصوير وطرائق الاشتقاق والتجسيد؛ وهو ما أشبع الحس الجمالى لقارئه وأرضى توقعاته الموضوعية والفنية.



صورة نادرة لشوقي في جامعة مونبلييه

obeikandi.com